الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها
محاضرات موجهة لطلبة السنة الثالثة ليسانس ـ الدراسات اللغوية بنظام (ل.م.د.)
مقياس منهجية البحث اللغوي
إعداد الأستاذة: دلولة قادري

المحاضرة الرابعة
الاستقراء والاستنباط

المحاضرة الرابعة
الاستقراء والاستنباط

إن الوصول إلى نتائج علمية دقيقة يتطلب السير وفق منهج علمي دقيق، والذي يفرض بدوره إتباع خطوات تطبيقية يتحكم فيها إطار فكري يعتمد على الاستقراء أو الاستنباط باعتبارهما أسلوبين للاستنتاج العلمي، فما هو الاستقراء وما هو الاستنباط؟ وما هي طبيعة العلاقة بينهما؟ هل هي علاقة تضاد و تناقض؟ أم أنها علاقة تكاملية ولا غنى لأحدهما عن الآخر؟

أولا: الاستقراء:

1-لغة: إن كلمة الاستقراء مشتقة من الأصل الثلاثي (قرأ) أو (قرا) وإذا ما تتبعنا التعريف اللغوي للمادتين وجدناهما يدلان على معاني مختلفة، إلا أنهما يشتركان في ثلاثة معاني وهي: التتبع و الجمع والضم، يقول ابن منظور : "قرأ القرآن: التنزيل العزيز، وإنما قدم على ما هو أبسط منه لشرفه، قرأه يقرؤه ويقرؤه الأخيرة عن الزجاج، قرءا وقراءة وقرآنا، الأولى عن اللحياني، فهو مقروء، أبو إسحق النحوي: (يسمى كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه كتابا و قرآن و فرقانا، ومعنى القرآن: معنى الجمع، وسمي قرآن لأنه يجمع السور فيضمها ، وقوله تعالى: "وإن علينا جمعه و قرآنه » أي: جمعه وقراءته، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه أي: قراءته...و قرأت الشيء قرآن: جمعته وضممت بعضه إلى بعض."

2-اصطلاحا: الاستقراء عملية النظر في الكلام العربي وملاحظته وتصنيفه، وهذا هو الأساس الذي أدى إلى معرفة أن الكلمة العربية أنواع، فهو: إستخراج العام من الخاص، أو هو انتقال من جزئي إلى كلي.

ويعتمد الاستقراء على الملاحظة والتجربة والفرض، من أجل الوصول إلى القانون العلمي العام الذي يتيح الفرصة لكشوف جديدة، وتعد الملاحظة (Observation)) الخطوة الأولى، لكنها ليست الملاحظة العفوية العامة التي تجري في حياتنا حين تدرك الظواهر المختلفة التي تحدث أمامنا بحواسنا، وإنما هي الملاحظة العلمية الواعية المدركة المميزة التي تهدف إلى الكشف عن خصائص الظواهر وأسبابها والنتائج المترتبة عليها، وما بينها من وجوه الاتفاق والاختلاف، أما الفرض (Hypothese)) فإنه يتأخر نسبيا إلى إلى حين الانتهاء من جمع الجزئيات ودراستها ومحاولة استخلاص خصائصه، ثم تأتي مرحلة التجريب (Experimentation) حيث تتم العودة من جديد إلى الجزئيات لفحص الفرض من خلالها والتأكد من صحته أو عدمها.

وقد ذكر العلماء قسمين للإستقراء: تام و ناقص، فالتام هو ما يقوم على حصر جميع الجزئيات للظاهرة المدروسة، أما الناقص فهو ما يقوم على الاكتفاء ببعض جزئياتها، ونتائج النوع الأول أكثر يقينية من النوع الثاني، ولا تكون نتائج النوع الثاني صحيحة إلا إذا كانت الجزئيات المختارة للدراسة من القوة بحيث تمثل بشكل كاف المسألة المدروسة، وقريب من هذا التقسيم ما ذهب إليه الشريف الجرجاني (ت816ه)، إلا أنه نعت الاستقراء التام بالقياس، فقال: " الاستقراء هو الحكم على كلي بوجوده في أكثر جزئياته، وإنما قال في أكثر جزئياته لأن الحكم لو كان في جميع جزئياته لم يكن استقراء بل قياسا مقسما، ويسمى هذا استقراء لأن مقدماته لا تحصل إلا بتتبع الجزئيات ، كقولنا: كل حيوان يحرك فكه الأسفل عند المضغ ، لأن الإنسان والبهائم والسباع كذلك، وهو استقراء ناقص لا يفيد اليقين ، لجواز وجود جزئي لم يستقرأ ويكون حكمه مخالفا لما استقرئ كالتمساح فإنه يحرك فكه الأعلى عند المضغ".

وقد ظهرت ملامح الاستقراء العلمي الصحيح في الأبحاث اللغوية عند علماء العربية الأوائل في وقت مبكر جدا، ومن ذلك ما فعله أبو الأسود الدؤلي (ت 69ه) في نقط المصحف الشريف، حيث تذكر الروايات أنه حاول شكل المصحف الشريف، فاستعان بكاتب من هذيل، وقال له: "خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد، فإذا | فتحت شفتي فأنقط نقطة واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله ، فإن أتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فاجعل نقطتين"، وأول ما يمكن استخلاصه من هذا النص هو تلك العناية الكبيرة التي أولاها أبو الأسود للصوائت القصيرة، والتي اصطلح عليها قديما بالحركات، لما لها من أثر كبير في تحديد المعنى، ومما لا شك فيه هو أن أبا الأسود الدؤلي قد استنتج مواقع تلك الحركات في الكلمات من خلال تتبع كل كلمات القرآن الكريم، يقول عبد الرحمن حاج صالح (ت2017م) رحمة الله عليه: "وهذا جد معقول ، فالنقط لهذا الغرض يقتضي أن جعل علامة خاصة لكل ما ينطق به من النص، ولم يكن له علامة خطية في الأصل ... ويلزم من هذا، التصفح الكامل للنص القرآني "، ولا بد أن هذا الاستقراء قد تم بالملاحظة العلمية الواعية التي مكنت أبي الأسود الدؤلي ومن ساعدوه في هذا العمل الجليل من إدراك أن النقطة الأولى قد تكررت في كلمات قد وقع عليها الفعل، وأن النقطة الثانية تكررت في كلمات هي التي قامت بالفعل، وهكذا، ومن ثم استنتجوا من خلال هذا الاستقراء التام ما يدل على الإعراب، وهي أن الفتحة تكون علامة للمفعول، وأن الضمة علامة للفاعل والكسرة علامة للمضاف، وهكذا تم وضع بعض الأصول العامة للعربية بعد وقت قصير من هذه العملية، يقول عبد الرحمن الحاج صالح: "فقد استقرى أبو الأسود وأصحابه النص القرآني آية آية لنقطه، فلا يتصور أن يستمروا في هذا العمل الذي يتطلب الانتباه الشديد ولا يتفطنوا إلى شيء مثل هذا: وهو استمرار وجود النقطة المشيرة إلى الضمة مع هذا اللفظ الذي يدل على الفاعل، و استمرار النقطة الدالة على الفتحة لهذا اللفظ الآخر الذي يدل على المفعول وهكذا... وهكذا فقد كان النقط الدال على الحركات والمميز، خاصة بين الوظائف النحوية الثلاث الأساسية، سببا مباشرا لتأسيس النحو أي العربية في الاصطلاح القديم." وفي هذا دلالة واضحة أن علماء العربية الأوائل، وبخاصة خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى، لم يضعوا قواعد الإعراب نتيجة التحليل الفلسفي أو المنطق الأرسطي

الصوري، وإنما وصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل التحليل الرياضي الذي تميزوا به في تلك العصور.

ثانيا: الاستنباط:

1-لغة: إن أصل كلمة (الاستنباط) من نبط بمعنى استخرج واستظهر، قال ابن الأثير (أبو العادات مجد الدين) (ت544ه): «نبط: فيه (من غدا من بيته ينبط علما فرشت له الملائكة أجنحتها) أي: يظهره ويفشيه في الناس، وأصله من: نبط الماء ينبط ينبط (بالضم والكسر كما في القاموس): إذا تبع، و أنبط الحفار: بلغ الماء في البئر، و الاستنباط: الاستخراج، ومنه الحديث: (ورجل ارتبط فرسا ليستنبطها)، أي: يطلب نسلها ونتاجها، وفي رواية: (يستبطنها): أي يطلب ما في بطنها، وفي حديث بعضهم وقد سئل عن رجل فقال: (ذاك قريب الثرى بعيد النبط)، النبط و النبيط: الماء الذي يخرج من قعر البئر إذا حفرت، يريد: أنه داني الموعد بعيد الإنجاز".

2- **اصطلاحا:** معناها: استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن و قوة القريحة، ويقابله في الاصطلاح الأجنبي كلمة (Deduction))، وهو في اصطلاح البحث العلمي: ذلك النوع من الاستنتاج الذي يحصل لحالات خاصة من خلال معرفة قانون عام، ولا يكون الاستنباط صحيحا إلا إذا كانت القاعدة العامة أو المقدمة المنطقية صحيحة، وقد عرفه عبد الرحمن بدوي بأنه: " السلوك العام المستخدم في العلوم ، والرياضة خصوصا، وهو عبارة عن التسلسل المنطقي المنتقل من مبادئ أو قضايا أولية إلى قضايا أخرى تستخلص منها بالضرورة ، دون التجاء إلى التجربة"، أي أنه يعتمد على المبادئ المنطقية العقلية ، وهو بذلك مقابل للاستقراء الذي يقوم على الملاحظة والتجربة، فإذا كان الاستقراء موضوعه الوقائع الخارجية، فإن الاستنباط موضوعه العمليات العقلية ، كما أن الاستقراء يبدأ بالجزئيات ليتوصل إلى القوانين والمسلمات العلمية، في حين أن الاستنباط أو القياس يبدأ بالقوانين ليستنبط منها الحقائق الجزئية، وبذلك نلاحظ أن الاستنباط يسير في اتجاه معاكس للتفكير الاستقرائي الذي يتبعه التجريبيون، ولا يعني هذا أنه مناقض له بل هو مكمل له، وبذلك فهما يقطعان طريقا واحدة متكاملة إلى المعرفة ، لأنه ينقل العالم الباحث بصورة منطقية من المبادئ التي تقوم على البديهيات والمسلمات العلمية ، والتي غالبا ما تكون قد تكونت من نتائج عملية الاستقراء، إلى الجزئيات وإلى استنتاجات فردية معينة ومن مظاهر التكامل أيضا أن الأسلوب الاستقرائي يهدف إلى التحقق من الفروض وإثباتها عن طريق الاختبار، والأسلوب الاستنباطي يسهم في التحقق من صدق القوانين العامة باختبارها في حالات جزئية لم تتناولها الملاحظة من قبل، ويمكننا القول إذا بأن هناك علاقة تبادلية بين الاستقراء والاستنباط ، وعادة ما يتقدم الأول على الثاني ، وبذلك فإن الاستنباط يبدأ من حيث ينتهي الاستقراء، و بينما يحتاج الاستقراء إلى الاستنباط عندما يطبق على الجزئيات للتأكد من الفروض، فإن الاستنباط يحتاج إلى الاستقراء من أجل التوصل إلى القواعد والقوانين الكلية.

وبذلك فإن الاستنباط يبقى قاصرا من دون الاستقراء لأنه يكون حينئذ مجرد تخمين وظن لا يرقى إلى اليقين العلمي ، وكذلك يبقى الاستقراء دائما بحاجة إلى الاستنباط. وبهذا نرى التكامل الواضح بين الأسلوبين الاستقرائي والاستنباطي.